شادي سلمان
مقبل
مصحة سمالوط
حيث يأتي النور و العافاة من الطبيب
فيحل الظلام على الطبيب

مصحّة سمالوط

حيثُ يأتي النور وتأتي المعافاة من الطبيب، فيحل الظلام على الطبيب.

شادي سلمان

اسم العمل: مصحّة سمالوط.

الكاتب: شادي سلمان.

تدقيق لغوي: منة رفعت.

تصميم الغلاف: عبد الله مقبل.

الإهداء..

«إلى روح جدتي الغالية.. أنا هنا أطوف وحيدًا في معارك حياتي، تائه وفقير من دون دعواتك، أسأل الله العظيم أن يجعل الفردوس الأعلى مسكنك، لعل اللقاء بيننا قريب وتكون الجنة مجلسنا. لا تنسوها وأموات المسلمين من دعواتكم.»

«مساعدتك لجميع من حولك هو أمر مفروض علينا جميعًا، كل هؤلاء البشر خُلقوا لمساندة بعضهما البعض، أنا وأنت والجميع نستحق العيش مطمئنين، القليل من المساعدة والكثير من الحب يساعد الجميع على تخطي الأمور التي تعوقهم، كلنا نحتاج بعضنا البعض في كثير من الأوقات. الكاتب، المفكر، الدكتور، المهندس، والجميع يحتاج إلى المساعدة، فلا أحد قادر على مواجهة كل تلك الصعاب وحيدًا.»

****

- على رِسلك يا روح الروح تلك الطريقة ستتأذين بها.
- حسنا يا أبي لن أركض هكذا ثانيةً.

طبع "جُبير" قبلةً على ناصيتها قبل أن تتركه وتذهب لتكمل اللعب بأشيائها..

———

- تلك الكمية الكبيرة من التدخين حتما ستلحق الضرر بك يا زوجي العزيز.

بدأ "جُبير" الحديث وهو يتناول فنجان القهوة من زوجته قائلاً:

- زوجتي وروح فؤادي، قمنا من قبل بالحديث في هذا الأمر مرارًا وتكرارًا، وأنا أرى أن التدخين يساعدني أنا وعقلي على إنتاج الكثير من الأفكار أثناء الكتابة.

تحدثت إليه بيأس كالمعتاد مثل كل مرة تريد نصحه:

- حسنًا حسنًا، ولكن مهلًا لماذا لم تذهب اليوم إلى العيادة!

تحدث إليها غامزًا:

- وهل من العدل أن أذهب قبل أن تضوي تلك النجمةُ سمائي!

تحدثت زوجته بخجل قائلة:

- قلبي الضعيف لا يتحمل يا عنترة زمانك.. لا تنسى أن تحضر معك البيض وأنت عائد، لأنني سأذهب اليوم إلى والدتي ومن المحتمل أن أتأخر قليلاً.
- تبًّا للنساء، أتغازل بها وتقول لي عليك أن تحضر البيض!
- هل تُتَمِّم بشيء يا عنترة زمانك!
- لا حبيبتي أنا أقول لن أنسى بإذن الله، أستودعكم الله.

****

- صباح الخير يا "مريدة" هل هناك حالات كثيرة اليوم؟
- صباح الخير يا دكتور "جُبير" نعم وسأقوم بإدخال أول حالة لك فورَ دخولك.

بعد دقائق

- صباح الخير يا دكتور "جُبير" أنا جارود.
- صباح الخير جارود، تفضل اجلس على تلك الأريكة هناك.

قام الدكتور "جُبير" بتوجيه حديثه إلى "جارود" قائلاً:

- مما تعاني يا أخي جارود؟ يمكنك البدء بالحديث الآن.

قام "جارود" بالبدء بالحديث بتثاقل:

- لقد أصابني الاكتئاب، طريقة تفكيري متثاقلة، الكثير من المشاكل العاطفية والجسدية تقيدني، ممارستي لحياتي اليومية تمر عليَّ بانعدام الشعور والرغبة الدنيوية، دائمًا ما أفقد الشغف تجاهَ كل الأشياء بحياتي، أَتعرفُ أيها الطبيب شعور أن تكون منبوذ مِن جميع مَن حولك حتى تصل إلى مرحلة أنك منبوذ حتى من نفسك! أنا أعي جيدًا أنك ستقول لي أن المواد الكيمائية الموجودة بداخل عقلي تعمل بشكل جيد وليس لها علاقة بالمزاح واللعب، ولكن أنا أعرف أيضًا أن تلك الكلمات ستَنطِقُ بها لي حتى تُطمئن قلبي وتساعدني على الانخراط بِمرحلة العلاج، ولكن صدقني

يا دكتور جُبير تلك المواد الكيميائية التي بداخل عقلي أصبحت غير موجودة كمثل عقلي تمامًا.

———

- أدخلي الحالة الثانية يا "مريدة".
- حسنًا.

بعد دقائق

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته دكتور جُبير أنا رويفي.
- مرحبا بك رويفي يمكنك البدء بالحديث الآن.
- في الحقيقة يا دكتور كل الأمور من حولي تشعرني دائمًا أنني لست حاضرًا بما يكفي، كل الأشياء من حولي بدت وكأنها لا تعرفني... عائلتي، أصدقائي، هؤلاء الذين يمرون بحياتي من حينٍ إلى آخر، بِتُّ أشعر وكأن دوري مُهمَّشًا في حياتهم، ولكن أنا أقدم الحب والود لهم جميعا، أسعى جاهدًا بتقديم كل الأشياء التي تشعرهم وكأنهم الدور الأساسي الذي بدونهم تتوقف حياتي، ولكن من أفعالهم ضدي أشعر وكأنني من المارين بحياتهم ينكرون دوري معهم يقتصدون بأفعالهم كل الأشياء السلبية التي تجعل قلبي يبكي عليَّ وعلى نفسهِ، هل من العدل أن يكون ذلك هو المقابل الذي أحصده؟ "أنا أراهم كل شيء ولكن أرى نفسي في حياتهم لا شيء!".

- مريدة لا تُدخلي أي حالات أخرى، أشعر وكأنني مرهق اليوم، سأذهب الآن وغدًا بِمشيئة الله تعالى نُكمل.
- حسنا يا دكتور جُبير شفاكَ الله.
- بوركتِ يا مريدة أستودعكم الله.

****

- دكتور أويس! مريض عنبر "22" حالته غير مستقرة ولا أحد قادر على إيقافه.

اتجه الدكتور أويس إلى عنبر 22 مسرعًا، ثم قام بإعطائهِ جرعة من المهدئات حتى هدأ.

- لن يَمَسَّك أيُّ مكروهٍ وأنا على قيد الحياة، سأبذل قصارى جهدي من أجلك، أتعرف! قد قمت برفض الكثير من الأماكن الأخرى من أجلك، أنا مدينٌ لك بالكثير والكثير ما كنت سأصلُ إليه لولا فضل الله أنه وضعك في طريقي كنت سأكون نسْيًا مَنسيًّا، كانت أحلامي ستتلاشى وأنت قدمت الكثير لي ومددت لي يد العون التي كانت بمثابة طوق النجاة لي، كل ما أنا عليه الآن كان بدايته أنت كنت تحضنني وتعاملني وكأنني ولدك، وحان الآن دوري حتى أرد لك الجميل.

****

« كمثل الورد تنثر البهجة أينما حلت، تبدين وكأنك لوحة خططت من الورد، جئتِ صدفة وبقيْتِ فيَّ دهرًا، دائمًا ما أميزك وأستثنيكِ يا أجمل أشيائي، تحيطِيني كالورد وتؤنسيني برقة قلبك، وعيناك لا أملها لو بقيت عمري بِأكملهِ ناظرها، منذ قدومك وقلبي يتراقص من السعادة، حتى عيناي تنثر القلوب كلما نظرت إليكِ.»

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- وعليكِ من الله سلام يخيم عليكِ ورحمةٌ منه تطمئن قلبكِ وبركاتًا منه تملأ حياتكِ يا حبيبة القلبِ.
- وإياك يا عزيزي، يبدو وكأنك في مزاج جيد، هل كنت تدون بعض من نصوصك؟
- في الحقيقة تلك المرة لم تكن كلماتي أنا، ولكنها لكاتب يدعى "شادي سلمان" عندما قرأتها جذبت انتباهي وأردت أن أهديها إليكِ.
- يا إلهي، عندما تقرأها تصيب قلبك بالفعل!
- شعرت بذلك أنا أيضًا وقتما قرأتها.
- حسنًا يا عزيزي، سأذهب أنا الآن لأقوم بتجهيز الطعام يبدو وكأنك مُرهق اليوم.
- نعم يا حبيبتي، هؤلاء الشباب الذين يأتون إليَّ يعانون من أمراض نفسية مختلفة.

- حسنًا يا حبيبي عندما أقوم بتجهيز الطعام سأستدعيك، لا تمسك بيدي هذا ليس وقت نتغزل به، ابنتنا بالخارج ولا تصح تلك الأفعال أمامها، دعني أذهب الآن يا عزيزي.

عندما التفتُّ إليه لأفلت يداي منه وجدتهُ ساكنًا بمكانهِ والضحكات تعلو منه على أكمامي العالقة بالباب!!

———

الإهمال دائمًا ما يؤدي إلى مراحل نفسية يصعب على المرء العودة منها وحيدًا، أيصدق أحدًا منكم أنَّ مرضاي الذين يأتون إلي لمساعدتي لهم في مرحلتهم العلاجية من الاكتئاب جميعهم شباب لا تتخطى أعمارهم الثلاثون عاما! الجميع يعاني الكثير من الاضطرابات سواء كان سببُ ذلكَ عائلته، أصدقاءه، زوجته، كل منهم يعاني من أمر مختلف، لكن تلك الاختلافات تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي الاكتئاب.

———

- أنهيت الطعام يا عزيزي.
- حسنًا، أنا قادم الآن.
- هل استطعت يا عزيزي أن تُوّفق بين العمل بالجامعة والعمل بعيادتك الخاصة؟!

- في الحقيقة، عندما بدأت الدراسة وأنا أذهب للعيادة يومَ الإجازةِ فقط، وجدت الأمر مرهق إذا عملت في الشيئين معًا، لذلك خصصت إجازتي من الجامعة للعمل في العيادة الخاصة.
- أعانك الله ويسر أمرك يا رفيقي، الأمر مرهق عليك كثيرًا ولكن نحن لا ننسى كل الأشياء التي تفعلها لأجل أن نعيش في سلام.
- كل الأشياء بالنسبة لي لا تعني لي شيء عند رؤية عيناي لبسمتك تلك التي تخيم على وجهك، كل المتاعب تزول عندما أحتضن ابنتنا، كل تلك العوامل تجعلني سعيدًا يا حبيبتي.
- هل العمل بالعيادة أمر مرهق بالنسبة لك؟
- في الحقيقة الأمر لا يتعلق بالإرهاق، الأمر يتعلق بحزني على هؤلاء الشباب الذين يأتون لي مثقلين بحزن وصدمات كثيرة، يأتون وهم يحملون مرض الاكتئاب! دائمًا أسأل نفسي هل ذلك سبب الأهل أم سبب ضعف إيمان هؤلاء الشباب وبعدهم عن طريق الله؟ ولكن بالنسبة لي أنا أسعى لتقديم العلاج المناسب لهم، أسعى أن آخذ بأيديهم إلى بر الأمان تلك وظيفتي التي طالما أحببتها لأكون سببًا إيجابيًّا في حياة الكثير من الناس.

****

- دكتور أويس مريض عنبر 22 استفاق ولكنه يبدو وكأنه فاقد النطق.
- حسنًا أنا ذاهب إليه الآن.
- يمكنك الذهاب الآن يا حليمة، أريد أن أجلس معه بمفردي.
- حسنًا يا دكتور، إذا أردت شيئا فقط قم بمناداتي وسأحضر لك على الفور.
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا معلمي القدير، أنا أقدر تلك الحالة التي توصلت إليها بسبب ذلك الشيء الذي رأيته، أي رجل عاقل سيحدث له عدم السيطرة على غضبه ورغبته الشديدة في الانتقام ولكن أنت كنت قاسيًا لحد كبير في عقابك وهذا ما جعلك تصل إلى هنا.

———

- دكتور جُبير! يبدو على ملامحك الإرهاق الشديد وأنا لم أدخل لك سوى مريض واحد فقط!
- نعم يا مريدة أنا بالفعل الليلة الماضية ظللت جالسًا حتى إشراق الصباح وكأن قلبي قلق من شيء ما، أنا سأذهب إلى المنزل وقومي بتأجيل الحالات الأخرى ليوم آخر.
- حسنًا يا دكتور كما تحب.

اِتجه دكتور جُبير بسيارته إلى المدرسة التي تدرس بها ابنتهُ لتذهب معه كما اتفق معها من قبل، فتح باب السيارة ودلفت بداخلها طفلة في التاسعة من عمرها ذات شعر بني وبشرة بيضاء، يزين وجهها عينان واسعة كعيون الريم، تعجز حروف الشعراء والكُتَّاب عن وصفهما .. بدأت حديثها والابتسامة تعلو وجهها،

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أبي .

بعناق ممزوج بالحب والحنان ردد:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا روح الروح.
- حسنًا، أين سنذهب الآن يا مقمر الليل.
- مقمر الليل! وماذا يعني ذلك الوصف يا مُر همي؟
- قرأت قصة من قبل تقول أن نساء العرب قديمًا كان إذا ظهر الشيب على أزواجهم يقولون ها هو أقمر ليلاه.
- يبدو أن هناك كاتبة كبيرة تنمو بداخلك وستكون صاحبة أراء وأعمال قوية.

تحدثت إليه بنبرةِ تكبر قائلة:

- ليس الآن سأترك للكتُّاب الحاليين مساحة حتى يطوروا من أنفسهم قليلاً ولا يشعروا بالخجل أمامي مستقبلاً.

تعالت ضحكات جُبير على حديث اِبنته الذي يبدوا وكأنه حديث شخص في الأربعينات من عمره وأكمل كلامه قائلاً:

- حسنًا، هل يمكننا الذهاب إلى المنزل الآن؟

- المنزل! ألن نذهب للتنزهِ اليوم كما وعدتني!
- بلى، سنذهب ولكن في المساء حتى تنهي والدتك أعمالها وتذهب معنا أيضًا.
- يا إلهي كم أنت رقيق القلب يا عنترة زمانك.

نظرَ إليها والدها متعجبا وقال:

- عنترة زماني!
- أسمع أمي دائمًا ما تقولها لك.
- حسنًا سنرى ذلك الأمر سويًّا عند عودتنا للمنزل.

****

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا حليمة، أريد منك الذهاب إلى عنبر 22 والاطمئنان على حالة المريض هناك.
- حسنًا يا دكتور.

طرقت حليمة الباب عدة مرات ولكن لا أحد يستجيب، ففتحت الباب برفق ظنًّا منها أنه نائم، ولكن عندما دخلت الغرفة لم تستطيع التماسك مما رأته، ظلت تصرخ وهي تركض كمن يهرب من وحش على وشك أن يفترسه، وصلت حليمة إلى مكتب الدكتور أويس وبدأت حديثها ممزوجًا بدموع الخوف:

- دكتور أويس عليك الذهاب الآن إلى عنبر 22 المريض مات!

اِنتفض دكتور أويس مما سمعه وركض مسرعًا بطرقات المصحة وتفاجأ عندما وجد المريض ميتًا وبدأ حديثه موجَّهًا إلى طاقم التمريض المسؤول:

- كيف تتركونه وحيدًا هكذا! كيف لم ينتبه له أحد ولم يشرف عليه أحد؟

جلس الدكتور أويس بجانب المريض وبدأ حديثه قائلاً:

- نحن لم نتفق على هذا كيف لك أن تذهب وتتركني وحيدًا؟ لقد وعدتني بأنك ستظل دائمًا الرفيق والأب كيف لذلك أن يزول في غمضة عين؟ هل يمكن لِقرار خاطئ في وقت عصيب أن يؤدي بنا إلى تلك النهاية؟

بكى قليلًا ثم تابع:

- إلى مَن سأذهب وقت انكساري؟ مَن سيطيب جرحي غيرك؟ لم أكن أريد أن تكون تلك نهايتك أنت تستحق نهاية أفضل!

****

- هيا حبيبتي لقد وصلنا علينا الصعود سريعًا لنبدل ملابسنا ونصطحب والدتك للذهاب معنا.
- يا لطيبة قلبك يا عنترة زمانك لا تستطيع الذهاب بدون أمي.

تحدث إليها والدها ممازحًا:

- لو حَتَمَ الأمر سأذهب أنا ووالدتك بدونك.
- لا أرجوك يا عنترة، قلبي لا يتحمل أن تتركني وحيدة.
- كُفي عن الحديث يا مُرَّ همي وهيا لندخل.

تفاجأ الدكتور جُبير عندما فتح الباب بصوت رجلٍ يأتي من داخل غرفة النوم! وقف لثوانٍ يحاول استيعاب ما يحدث، ثم اِشتعل غضبًا ولم يستطع تمالك نفسه، وسط الكثير من الأسئلة التي تدور بداخل عقله، مَن يمكنه أن يكون بداخل غرفتي وكيف دخل إلى المنزل؟ كلها أسئلة لا إجابة لها إن ظل ساكنًا في مكانه خارج الغرفة، تقدم الدكتور جُبير، ولكن تفاجأ عندما فتح الباب كانت زوجته وعشيقها بداخل الغرفة سويًّا!

انقض عليهم جبير بطريقة متوحشة ظل يطعن في زوجته بقسوة بذلك السكين الذي كان يحمله، وغليله يشتعل كل مرة أكثر، حتى استفاق من تلك الحالة على صوت بكاء ابنته التي كانت تقف خلفه وتشاهد ما حدث.

بعد مرور أسبوع على الحادث

ظل الدكتور جُبير يسعى أن يُخرج ابنته من تلك الحالة التي أصابتها منذ رؤية الحادث، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل منه، حالة ابنته كانت تسوء يومًا بعد يوم وكذلك الأمر بالنسبة إليه، زوجته رفيقة دربه كيف لها أن تفعل مثل هذه الأفعال؟ الأمر كان صادمًا بالنسبة لحبه لها..

انتحرت ابنة الطبيب بعد صراع كبير من الحالة التي توصلت إليها، أصبحت الدنيا حولها خاوية على عروشها بدونهم، ظل الطبيب يعاني كثيرًا وسط شعوره بالذنب في انتحار ابنته، ظل يلوم نفسه أنه السبب في موتها ولكن انتهى به الأمر بتسليم نفسه إلى الشرطة والاعتراف بفعلته.

****

- دكتور أويس؟
- نعم يا حليمة تفضلي.
- تلك الورقة وجدتها بالدرج بجانب المريض في عنبر 22 مدون بداخلها: "هو السبب في موتي"، مَن يقصد؟

بدأت معالم وجه الدكتور أويس تتغير بطريقة غريبة، مما زاد الشك في حليمة..
أصدر الدكتور أويس ضحكات ممزوجة بالكثير من الشر ثم بدأ بالتحدث قائلًا:

- نعم، ما تُفكّرين به صحيح، أنا السبب في قتله.

اشتعلت الصدمة بداخلها وزاد خوفها لكنها بقيت صامتة، فتابع هو:

- شخص مثله لا يستحق العيش، كيف له أن يعيش مع زوجته وهي عشيقتي؟ كيف له أن يراها وقتما يشاء وأنا لا أملك الحق في ذلك؟ كيف له أن يمازحها ويتغزل بها؟ كيف يُمكن أن تكون ملكه هو ولا تكون ملكي أنا؟
منذ أن طعنها بالسكين في قلبها في ذلك اليوم الذي كنت متواجد معها في بيته، أخذتُ عهدًا على نفسي أن أقتله مثلما قتل حبيبتي، هو لا يستحق العيش.

ظلت حليمة ساكنة في مكانها، وملامح الصدمة تعلوا وجهها أكثر، ثم قالت بصوت خائف:

- أنت مجرم مجنون، سأبلغ الشرطة عنك وسأقص عليهم ما فعلته لتنال جزاء ما فعلت!

فنظر إليها ضاحكًا وقال بنبرةٍ حادة:

- لن تخبري أحدًا بذلك، تعرفين لماذا؟ لأنك ستلحقين به.

تمت بحمد الله